

## الفصل الثامن

### الخمرة فى رباعيات الخيام رمزية ام حقيقية؟

يقول الشاعر أحمد رامى إن عمر الخيام لم يكن يهتم بأمس ولا الغد، ويريد لو ينتهز الفرصة الحاضرة وينادم الكأس ليلاً فى ضوء القمر وفى مجلس الحبيب، وسحراً عند طلوع الفجر، ومساءً عند غروب الشمس على نغم الناي والرياب، وفى الربيع على شفا الوادى، وعلى ضفاف الغدير، بين الزهر المفتّر والجو المعطر، فإذا ما ذكر حرمانه من الخمر بعد الموت طلب أن يُفسَل بها، وأن يُقدَّ نعشه من كَرَمها، حتى إذا بَلَى جسده ودَّ لو تُصاغ منه الدنان والاقداح.. وإنما أحب الخيام شُرْب الخمر، لأنها تسمو بروحه حتى تصبح فى نجوة من الجسد. ولم يقصر حبه على أثرها فى نفسه، وإنما أحبَّ طعمها المزّ ولونها الصافى، وأحبَّ كأسها الشفافة ودنّها الملائن. وكان يجد السعادة فى مجلس الشراب بين الصاحب والنديم..

\*\*\*\*\*

وفى رباعيات الخيام لمحمد رضا يقول محمد بدوى الخولى فى المقدمة إن بعض الباحثين لم يقفوا عند ظاهر ألفاظ خمرياته، وذهبوا إلى أن الخيام يتشجح فيها بوشاح من الرمزية، وعندما يتفنى بالسلافة فى رباعياته إنما يعنى سلافة الحب الإلهى التى كثيراً ماتبتّل بها شعراء الصوفية فى مواجيدهم، ومهما يكن من أمر فإن هذا التوتر النفسى الذى يترجمه الخيام شعراً خالصاً هو نسيج الخيام وحده.

\*\*\*\*\*

وفى رباعيات الخيام لوديع البستانى أن بعضهم زعم أن الخيام كان فيلسوفاً مادياً كلوقريشوس، وأنه نظر نظرة فالفى الحياة أمداً معلوماً، وأجلاً مصروماً، إلا أنه خالفه فى الدعوة فلم يقل قوله «كلوا واشربوا اليوم فغداً تموتون»، بل قال «اسكروا وتناسوا هموم الحياة، واغتنموا الفرصة قبل الفوات». ودليلهم فى ذلك إكثاره من ذكر الخمرة والكأس فى رباعياته.

وزعم آخرون أن الخيام كان صوفياً بحتاً، وأنه كان يتغزل بالخمرة تغزلاً، ويريد بها العزة الإلهية، شأن ابن الفارض من شعراء العربية، وحافظ من شعراء الفارسية.

فهل كان الرجل سكيراً متهتكاً، أم فيلسوفاً نزيهاً عفيفاً؟ سؤال كثرت الأجوبة عليه.

\*\*\*\*\*

وفى مقدمة الرباعيات لمحمد السباهي أن فريقاً من النقاد ذهب إلى أن عمر الخيام لم يكن في شعره ذلك الشهوانى المادى الإباحى كما يدلنا ظاهر ألفاظه، وإنما كان صوفياً يرمز للذات الإلهية بالفاظ الخمر والصابى والكأس وهلم جرا، كحافظ الشيرازى وابن الفارض وغيرهما. ولكن أصداد هذا المذهب يقولون إن المدون المثبوت فى سيرة الخيام فرط إدمانه الكأس واستهتاره بالشراب ينفى ذلك الرأى نفياً قطعياً، فكيفما كانت الخمرة المعنوية التى تغنى بأوصافها حافظ الشيرازى، وقال فيها ابن الفارض:

يقولون لى صفها فانت بوصفها \* خبيراً. أجل عندي بأوصافها علم  
صفاء لا ماء ولطف ولا هوا \* ونود ولانار، ودوح ولا جسم

وقال فيها:

شربنا على نكر الحبيب مدامة \* سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

فإن خمرة عمر الخيام لم تكن إلا عصير العنب المتهدل من كرومه، يُعصر سائلاً محسوساً مرشوقاً من أقداح البلود وقوارير الفضة الرنانة. ولم يقتصر الخيام على شربها مع الندمان فى مجالس الشراب، بل كان يحسوها فى الخلوة، زاعماً أن ماتحدثه عنده من النشوة هو أقرب وسيلة وأحضر سبيل إلى إيصاله من مراتب العبادة إلى تلك القمة، التى منها يسهل عليه استشفاف نور الحق من وراء حجب الكائنات، واجتلاء سرّ الأبد من خلال ظلمة الغيب، فذلك حيث يقول فى رباعياته:

قلّيم من هواء أو فليعدل \* إننى من معدنى المسترذل  
صفت مفتاحاً لباب مقفل \* بونه منفسوس كنز طالما  
رام منك النّسك حصناً لأيرام

\*\*\*\*\*

حانة المَح فيها بارقة \* من سنا الحق تجلت مفارقة  
كيفما كانت فضوياً محرقة \* أو لوماً بشمعاً بسما  
بغيتى - لا معبد داجى الظلام

وإذا لم تكن خمرة الخيام هى المادية المقصودة من الكرم، ولكن الخمرة الروحية، أعنى الذات الإلهية، فكيف يطلب أن يُفصل بها جسمه بعد الوفاة حيث يقول:

رَوْ قَبْلَ الْمَوْتِ مِنْ بَرْدِ الشَّمُولِ \* عَوْدِي الْيَابِسِ مِنْ قَبْلِ الذَّبُولِ  
وَإِذَا مَا مَتَّ فَاَجْعَلْ غُسُولِي \* وَيَأْفِيَاءَ الْعَنَاتِيْدِ احْتَفَرِ  
لِي وَكَفَّنِي بِأَوْرَاقِ الثَّمَارِ

ولماذا يود أن تُصَبَّ الخمرة الروحية في الأكواب المصنوعة من تراب الموتى بيد صوفى يخلفه  
حيث يقول:

فَانْبِرِي كَوْبَ حَزِينٍ وَأَوَّلًا \* جَفَّ مِنْ عَفَاءٍ وَيَلِي  
عَلَّةُ الصَّرْفِ الْعَتِيقِ السَّلْسَلَا \* عَلَّةُ يَشْفِي غَلِيْلِي الْمُسْتَعْر

وَيُسْرِي عَنْ فَوَادِي الْمُسْتَطَارِ

\*\*\*\*\*

وفي كتاب عمر الخيام لأحمد حامد الصرّاف أنه لم يرد أن أحداً قد ذكر أن الخيام  
كان مدمناً للخمرة سكيراً مع كثرة تفرّقه بها، وإنما الخيام قد دعا الناس إلى اللذة، وحثهم  
على طلب السرور، مدفوعاً بعقيدة فلسفية.. فلم يكن عدو الناس ولاصديقهم، ولم يطالبهم  
خيراً ولاشراً.. وقد جاشت في صدره نفثات هي حقائق ناصعة ومقاصد عالية ومعاني جليّة،  
ألبيتها قريحته الوقادة قوالب شعرية جميلة، أبرزها بصدق وإخلاص ونية حسنة.. فلم يكن  
الخيام شاعراً مستهتراً، ماجناً شهوانياً، مادياً، كما ادّعى ذلك فرناند هنرى وفيتزجيرالد  
وغيرهما، وإنما كان حكيماً مفكراً له عقيدة خاصة تعبر عن مزاجه ومذهبه ورأيه الفلسفي..

\*\*\*\*\*

وفي دائرة المعارف الصوفية ليهون فيرجسون أن عمر الخيام كانت له رؤية صوفية،  
واستخدم الخمرة كرمز، فلم يكن يعنى بها هذه الخمرة المُسكرة، وإنما المعرفة بالله، والتي إن  
تحققت لدى الصوفى استحدثت عنده حالة كالسُكر الذي تستحدثه الخمرة إن جاز التشبيه.

\*\*\*\*\*

وفي كتابه «نظرة جديدة في رباعيات الخيام» للدكتورة مريم محمد زهيرى أن  
الخيام لم ينظم كل ماُنسب إليه من رباعيات، ومايمكن قبوله منها هو مايتفق مع شخصيته  
كعالم وفيلسوف ومفكر يريد أن يصل إلى الحقيقة، وما لايتعارض مع مكانته ومنزلته في  
عصره، ومايتفق مع إيمانه وثقافته الدينية التي عبّر عنها في كتبه.. ومع ذلك فلا يُستبعد أن  
يكون الخيام قد تعرّض في طريقه إلى اليقين وزلّت قدمه لبعض الوقت، بالنظر إلى أن عصره لم

يكن نقياً تماماً فى عقائده ومذاهبه وسلوكه، فقد كانت الخمر تقدم فى قصور الكثيرين من عليّة القوم.. وكانت هناك ألوان من الانحرافات قد أخذت شكل الأمور المألوفة. ثم رجع الخيام إلى الصواب لنقاء عنصره، ولاسيما أن هناك بعض الرباعيات قد نظمها فى التوبة وطلب العفو والمغفرة.

\*\*\*\*\*

وفى كتاب كشف اللثام عن رباعيات الخيام للطرازى الحسينى أن خلاصة ماتدل عليه الأدلة التاريخية والتحقيقات العلمية فى موضوع الرباعيات مع البحث الدقيق السليم حول مكانة الخيام العلمية ومبدهه الحقيقى، هو انقسام الرباعيات إلى رباعيات لابس بها ويمكن أن تُنسب للخيام، ورباعيات مُستنكرة خمرية خليعة لاتتفق مع مكانته ومبدهه الذى ثبت عنه. ولو كانت له مثل هذه الرباعيات المستنكرة الخمرية الخليعة لما سكت عن روايتها المؤرخون الأقدمون والمؤرخون المعاصرون، ولقاموا بكشفها خدمة للحقيقة والتاريخ، ونهضوا بهذا الواجب خدمةً للدين الإسلامى والذود عن تعاليمه ضد عمر الخيام.

\*\*\*\*\*

هذا بعض ما أورده النقّاد فى موضوع خمريات الخيام. ولعلّ أول ما يمكن أن يناقش فى الخمريات هو قيمتها الفنية، ثم القيمة الأخلاقية التى تدعو إليها. ولو اعتبرنا الرباعيات مجرد قصائد شعرية تشيد بالخمر فإنها فوراً تسقط باعتبار النقد الفنى، فالخيام فيها قصير النفس ضحل الخيال. والصورة البلاغية عنده ملامحها فقيرة تعوزها الكثير من التفصيلات، ولغته بسيطة، وأسلوبه واضح حتى يمكن التعامل مع الرباعيات كتعاملنا مع المواويل الشعبية كما يقول المازنى، وحتى ليبدو الخيام فى صورة أولاد البلد وهو يقول:

أنا الذى هشت صريع العقار • فى مجلس نُحْييه كأس تُدار  
فعدُّ من نصمى، لقد أصبحتُ • هذه الطلّى كل المنى والخيار

ولنلاحظ أن النقّاد فى بلاده فارس لم يعتبروه شاعراً مجيداً بسبب هذه الخمريات. ومنهم من يجعله من شعراء الطبقة الثانية أو الثالثة من حيث الإجابة كما سبق أن قلنا. ولم تكن للرباعيات فى عمومها قيمة فنية إلا باعتبار ما يعرضه فيها الخيام من مساجلات فكرية

وصراعات وجدانية وصور مشحونة بالجرأة وإن بدت الأسئلة التي تطرحها بسيطة ظاهرياً إلى حد السذاجة.

ثم ماهى القيمة الأخلاقية فى الخمرىات لو اعتبرناها كما هى فى الظاهر؟

والذى نراه أن الأدب بما هو كذلك لابد أن يكون أخلاقياً فى المحل الأول. وكل أدب هو بمثابة دعوة للآخرين أن يحنوا حنو المبدع فىه. والأدب له رسالته السىاسىة، والأدىب لىس حراً أن ىنشئ ما ىشاء من أدبىات وىقول فىها ما ىشاء، وإنما إبداعه فى جانب منه اجتماعى وىمكن لآخرىن أن ىتابعوه على سلوكىاته فىه، وأن تكون لهم فلسفات.

والجرأة الفكرىة التى عليها الرىباعىات، وماتضمنته من مشاهد إباحىة وصور للتهتك تجعل الخىام مستكراً عند الكثرىىن. فإذا استبعدنا منها ما لا ىنسجم مع الفكر الخىامى كما ىعرضه فى الرسائل الأربع، ومع ما لا ىتفق والشهرة الذائعة له كفىلسوف وعالم لغوى وفقىه وفلكى، فإنه تظل عندنا بعضٌ من الرىباعىات الخمرىة لا ىسعنا مع كل ما قلناه عن الخىام فى السابىق من فلسفات إلا أن نأولها التأویل الواجب.

ولاأرى فى الشعر بالذات إلا أن له باطناً، وىلزمه عند الشعراء الكبار الكثرى من التأویل. والتأویل ضرورىة فى شرح وتفسىر ونقد الشعر. وأعظم الشعر ما كان حدىث الشاعر فىه رمزاً.

والتأویل فىما ىبدو مطلوب حتى فى القرآن. وىرد ذكر الخمر فىه فى سورة البقرة والمائدة وىوسف والواقعة ومحمد. وفى البقرة ىقول الله تعالى «ىسالونك عن الخمر والمىسر، قل فىهما إثم كبرى ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من، نفعهما» (٢١٩). وىفسرها فرىد وحدى بأن إثمهما لما ىترتب علىهما من تلف الأخلاق والصحة وضىاع المال، وفىهما مع ذلك منافع للناس بالاتجار والعمل فىهما، ولكن إثمهما أكبر من نفعهما. وهذا هو الشرح اللغوى للآىة.

وىتناول الإمام القشبرى نفس الآىة بالتأویل فىقول الخمر ماخامر العقول، وكما أن الخمر حرام بعىنها فالسكر حرام بقوله صلى الله علیه وسلم «حرمت الخمر بعىنها والسكر من كل شراب»، فمن ىسكر من شراب الغفلة استحق ما ىستحق شراب الخمر من حىث الإشارات، فكما أن السكران ممنوع من الصلاة فصاحب السكر بالغفلة محجوب عن المواصلات وأوضح شواهد الوجود.

ويؤهل العارف بالله محيي الدين بن عربي في التؤول أكثر من ذلك ويقول: ويسألونك عن خمر الهوى وحب الدنيا، وميسر احتيال النفس في جذب الحظ. قل «فيهما إثم» الحجاب والبعد، «ومنافع للناس» في باب المعاش وتحصيل اللذة النفسانية، والفرح بالذموم عن الهيئات الرديئة المشوشة والهموم المكثرة.

ذلك مقصود التؤول إذن وليس هو التؤول الآخر الذي ارتبط بالفرق الباطنية، حيث أولوا الخمر والزنا والسرقه واللواط وغير ذلك من المحرمات بأن المقصود بها رجال ونساء بعينهم ترمز لهم هذه المحرمات، وقالوا مثلاً إن تؤول الجنة هو ما يصيب الناشء من الخير والنعمة والعافية، والنار ما يصيبه من خلاف ذلك، فأسرفوا وغلوا ولم يكن لهم سند إلا الهوى بدافع الكفر والضلال.

وفي سورة يوسف الآية ٢٦ يقول الشيخ محيي الدين بن عربي في تؤول «إني أراني أعصر خمراً» هو اهتداء قوة المحبة إلى عصر خمر العشق من كرم معرفة القلب في نوم الغفلة عن الشهود الحقيقي.

وفي سورة محمد الآية ١٥ «مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم» يقول الإمام القشيري: كذلك اليوم شأن الأواباء، فلهم شراب الوفاء، ثم شراب الصفاء، ثم شراب الولاء، ثم شراب حال اللقاء، ولكل من هذه الأشربة عمل، ولصاحبه سكر وسحو. ونخلص إلى الآتي:

- أن الخمر في سور القرآن المختلفة عند أهل التؤول من العرفانيين كابن عربي والقشيري وغيرهما هي الغفلة؛ وقد تكون خمر الهوى وحب الدنيا، وقد تكون العشق. وقد يكون المقصود بها تسليط حب اللذات على الروح. ويرتبط التؤول بالسياق، فالخمر المعين هي خمر العشق المكشوف لأهل العيان، والخمر البيضاء هي النورية التي تستقى من عين الأحذية، لا شوب فيها ولا مزج من التعينات.

- وقوله تعالى أنها لذة للشاربين أي لاغول فيها يفتال العقل، لأن الشاربين هم أهل الصحو، أخلصهم الله من الشوائب والحجاب فلا ينكر لهم.

- وقوله أنهار من خمر هي الأصناف من محبة الصفات والذات، لذيذة للشاربين الكاملين البالغين إلى مقام مشاهدة حسن تجليات الصفات وشهود جمال الذات، العاشقين

المشتاقين إلى الجمال المطلق في مقام الروح والاستغراق في عين الجمع، من المتقين عن صفاتهم وذواتهم.

- وقوله لاينزفون عنها، أي بذهاب العقل، وبذهاب تمييزهم بالسكر. وقوله لا يصدعون عنها أي لا ألم معها ولاخمار، ولايطحون بسببها، لأنها كلها لذة، ولكونهم أهل صحو، غير محجوبين بالذات عن الصفات، وأصلين واجدين لذة برد اليقين، فإن محبة الوصول خالصة من ألم الشوق وخوف فقدان.

\*\*\*\*\*

ونتأمل خمريات الخيام فنكاد نجزم بأن رباعية كهذه تحتاج إلى تأويل، فالرمز فيها واضح المعنى والمقصود، ولغتها وجودية صوفية خالصة:

إذا انطوى عيشى وحان الأجل \* وسدّ في وجهى باب الأمل  
قرّ حباب العمر في كاسه \* فصبّها للموت ساقى الأزل

واستخدام الخيام للمصطلح الصوفى «السكر» و«الصحو» و«الغفلة»، واضح أيضاً في هذا البيت:

والصحو باب الحزن فاشرب \* تكن عن حالة الأيام في غفلة

\*\*\*\*\*

وفي هذه الأبيات يستخدم السقيا والكأس استخداماً شعرياً كما يقول هيلدرلن - إن الشعر هو الذى يجعل اللغة ممكنة، وماهية الشعر من ماهية اللغة، والشاعر الجدير بالتسمية هو هذا اللغوى الذى يقرب المعانى فيجسدها، ويهاجم بشعره القرب الجوهري للأشياء، فيجعل أنيتها شاعرية ويؤسس لوجودنا بعباراته وأوصافه ومجازاته وكنائياته. يقول الخيام:

إذا سقاك الدهر كأس العذاب \* فلا تُبِن للناس وقع المصاب

\*\*\*\*\*

ثم هو يقول مخاطباً الله عز وجل أنه كان موصولاً بالنفس منذ القدم فكيف أفريتَ شملنا؟ وكنتَ ترعانى فتركتنى للأسى والألم؟ فيطلب الخمر لأنه بها يتماسك، ولأن نفسه أسيانة توشك أن تنفرط منه وتسيل، ولأنه بها قد ينتشى فيتخلص من الهم، والخمر هي السلسبيل

فى القنان. يقول:

وصلتني بالنفس منذ القدم \* فكيف تفرى شملنا الملتئم  
وكنت ترهاني فماذا دعا \* إلى أطراحي للأسى والائم  
هات الطلى فالنفس عما قليل \* توشك من فرط الاسى أن تسيل  
عساي أنسى الهم فى نطوتى \* من بعد رشفى كأسها السلسبيل

واللغة فى هاتين الرباعيتين لغة وجودية صوفية تتحدث فى الأحوال، وهناك فرق بين شعر  
مجاله الأحوال وشعر آخر مجاله الكيفيات، والأول الشاعر فى صوفى وجودى يتحدث فى  
الوجود الذاتى، والثانى الشاعر فى كفى طبيعى يتحدث عن واقع فيزيائى. والخمر عند الأول  
خمرٌ معنوية ويقرنها لذلك بالسلسبيل من الفاظ القرآن، وهى عند الثانى الخمر الحقيقية  
ولا يمكن وصفها بالسلسبيل لمضارها وقبح فعالها.

\*\*\*\*\*

ورباعية كهذه لا يمكن إلا أن تكون موضوعة فهى ليست شعراً وإن كانت كلاماً منظوماً،  
وإلا فماذا تقول من المعانى والقيم، وماذا تقدم من الأفكار؟

للصوم والصلوات ملتُ تنسكاً  
فتيقنتُ نفسى غداً بنجاحى  
اسفأ فقد نلض الوضوء بنسمة  
والصوم زال بنصف جرعة راح

\*\*\*\*\*

وهذه الرباعية المزرية والسفة معا:

خطاء الدين يعدل الف نفس  
وتعدل ملك ذى الدنيا المدام  
أرى منديل مسح الراح عندى  
له فوق الطيالة احترام

\*\*\*\*\*

أر هذه:

إذا نلت رطلى قرّف فاحسُ جامها  
بكل اجتماع راقٍ أو محفلٍ حالى

فما يمتنى باري الوجود بشارب  
لذلك أو يهتم في ذنن أمثالي

\*\*\*\*\*

أو هذه:

توضناً إذا ماكنت في العان بالطلا  
فمن يفتضح فلا يرج أن يرآني  
أدبر لي الحمياً إن ستر عافنا  
قد انشوق حتى لا نطق له رتقاً

\*\*\*\*\*

ولو قارنا خمريات الخيام التي نزعم أنها صوفية الرموز بخمريات أبي نواس مثلاً - وهو شاعر الخمر بلا منازع، سنجد أن الخيام لا يهتم بوصف الخمر فيها وصفاً على الحقيقة، ولكنه مشغول بأغراض أخرى تستحث الفكر ولا تستحث الغرائز وخیالات اللذة.

وأين البيت السابق الذي يقول فيه الخيام إن الصحو باب الحزن، والشرب هو طريق تحصيل الغفلة - أين هو من قول أبي نواس:

اترك الأطلال لاتعبأ بها \* إنها من كل بئس دانية  
واشرب الخمر على تحريمه \* إنمادنيك دار فانية  
من عمار من رأها قال لي \* صيدت الشمس لنا في باطية

\*\*\*\*\*

وانظر إلى الخمريات الأخرى التي نصفها بأنها منحولة على الخيام نجد أنها تفتقد الأصالة وتقوم على التقليد ولاتمثل إبداعاً شعرياً كإبداع أبي نواس. بل إننا لنذهب إلى أنها تشايح أبا نواس على مذهبه في الخمر، وفيها الكثير من التقليد لخمرياته، كهذا البيت عنده:

غرّد الديك الصمدوح \* فاسقني طاب الصبوح  
وهذا البيت من الرباعيات:

أتسمع الديك أطال الصياح \* وقد بدا في الأفق نور الصباح

\*\*\*\*\*

وترتبط الخمر فى الرباعيات الحقيقية بالأحوال الوجودية والقضايا التى تختص بالإنسان  
كموجود، كأن تُدَكَّرَ مقرونةً بالهموم والموت وانقضاء العمر واكتساب الذنوب والزهد فى الدنيا  
والحض على مكرمةٍ أخلاقيةٍ أو اجتناء حكمة.

وأما الخمريات المنحولة فالخمر فيها ترتبط بلذة الشرب ومصاحبة النساء وسماع الرياب  
وضجة الحانات، والمقصود بها فى كثير من الأحوال إهانة الدين، والخط من شأن الصلاة  
والصوم، واستهجان التردد على المساجد.

والخيام الشاعر الصوفى المتزهّد إذا ذكر الخمر لايقربها إلا بشاهد من الطبيعة فيها  
اجتلاء لعظمة الله، وللجمال الأسنى الخالد، كالبساتين والغدران الجارية والبدر الطالع والببل  
الفرّيد. يقول الخيام:

لاتدع للأسى إليك سبيلا  
لايكُ الهمّ فى الفؤاد نزيلا  
واغتمها فالعمر ليس طويلا  
وتردد إلى ضفاف المجارى  
شاريا نخب بنتها بإنكار  
فقليل مانحن فى ظهر أروض  
فى نجي جوفها سننقى اغترابا

\*\*\*\*\*

وانظر إلى أبى نواس يطلق على الخمر اسم القهوة ويصفها بالقدّم منذ سيدنا نوح الذى  
تقول التوراة: أنه زرع الكرم وخمر العنب وشربه فسكّر، فكان أول من جرّب السكر كتعبير  
سفر التكوين:

قهوة تذكّر نُوحا \* حين شاد الفلك نوح

وقارن بذلك الرباعيات المنحولة التى تنوّه بكيمياء القهوة، وتشيد بها ككواء قديم، القطرة  
منها تزيل ألف علة!! وواضح أن مزيّف الرباعيات يحاول أن يقلد أبى نواس أو مدرسته فى  
الشعر الخمرى، ومع ذلك فهو لايقصد بها الدعوة لمذهب فى اللذة بقدر مايعنى بها طعن  
الدين.

\*\*\*\*\*

والخيام على العكس في خمرياته الصوفية متأمل وفيلسوف، والخمر التي يورد اسمها لاتذكّر بالخمير الحقيقية، والصور الذهنية التي تستدعيها فيها الكثير من التأويل يقسرك قسراً على التفكير في معان لها ليس منها مشاهد السكارى في الحانات.

وتأمل معي مشهد الكؤوس التي تتخاطب مع بعضها، وتسال أسئلة وجودية صميمة حول الخلق والموت ومعنى الحياة، وتنتهي المشهد بملاحظات فكاهية فيها السخرية. وقل لى هل الكؤوس هنا هي هذه القوارير من الخزف التي يُشرب فيها الخمر ويُصب في الأفواه؟ ولاملك إلا الإعجاب بالمشهد وشدة شحنه بالإشارات العالية، ولانقول فيه إلا أنه «مشهد فلسفي». وبالمقارنة فإن مشاهد أبي نواس هي مشاهد ماجنة على الحقيقة، والخمر فيها خمر من العنب، والسكارى سكارى بها، وأبو نواس شاعر ومصور واقعي يعكس نبض الحياة التي يحياها بتفاصيلها ودقائقها. يقول:

أحسن منزل بذى قار \* منزل خمارة بالأنبار  
وشم ريحانه ونرجسة \* أحسن من أنيق باكوار  
ومشيرة للقيان في دمة \* مع رشاً ماقد لزئار  
الذ من مهمه أكد به \* ومن سراپ أجوب فرار  
ونقر عود إذا ترجعه \* بنان رود الشباب معطار  
أحسن عندي من أم ناجية \* وأم عمرور وأم عمار

هذه هي الخمر عند أبي نواس - أحسن من شخصيات واقعية، وحاناتها أحسن من أماكن تاريخية، بينما الخيام أو المنتحلون عليه يجعلونه في شعره يفاضل بين الخمرة والمسجد ورمضان والجنة والحدود وشراب الجنة!! وكلها رموز دينية صريحة، وكأنه يباهى بالإلحاد، في حين مباحة أبي نواس بالخمير - فتأمل الفرق بين أن يكون الشعر مطبوعاً، وأن يكون الشعر منحولاً - فالخيام أريد به أن يكون شعره خمريات، وأن يقال عنه أنه شاعر خمر، فضع القصد وتاه عن المزيفين، وبرز الإلحاد، وتأكد أن المزيف أو المزيفين هم من الباطنية لاشك في ذلك.

وكان أبو نواس يتعبد للخمير، وأراد المزيفون أن يفعل الخيام مثله، وقيل في أبي نواس إنه فاق كل الشعراء في خمرياته، ومع ذلك فالمزيفون حاولوا أن يجعلوا الخيام يتفوق عليه، فأطالوا في الخمريات وأسهبوا دون طائل - والسبب أنهم لم يعنوا في التزييف بالخمير فعلاً، ولكنهم عنوا الدين الإسلامي والطعن عليه!

ورغم تفوق أبي نواس في الخمريات فإننا لم نسمع أو نشهد عن زجاجة خمر عصرية تسمى باسمه، في حين أن زجاجات الخمر تملأ الفنادق والحانات باسم عمر الخيام، وظاهر أن الخيام المسلم السنّي الفيلسوف المؤمن وعلامة عصره هو المقصود كموضوع لظعن الإسلام.

وأبو نواس من مواليد ١٤٠هـ من خوزستان جنوب غربي فارس، وتوفى بعد موت الأمين سنة ١٩٩هـ بزمن قصير، أي أنه تاريخياً يأتي قبل الخيام. وكانت شهرته طول حياته أنه من الشعراء المُجّان من أمثال ابن إلياس والحسين الخليل بن الضحّاك وحمّاد عجرد وأبيّان بن عبد الحميد اللاهقي والجارية عنان: فأين ذلك من شهرة عمر الخيام بأنه الخواجة أي الأستاذ، والحكيم سيد الحكماء، والفيلسوف، والفقير، والغوي!!

وقال عنه صاحب تنمّة صوان الحكمة.. إن القاضي عبد الرشيد بن نصر بن الحسن اجتمع به مرة بمدينة مرو، فستل عن معنى المعوّنين، وسبب تكرار بعض ألفاظهما، فاندفع الخيام يسرد كل قول نادر، ويورد كل شاهد شارد، حتى أتى بما لو جمع لبلغ حجم مجلد. وهذا هو مقامه المحمود في التفسير مع أنه لم يمتط غاربه، فما ظنك بعلم أنفق فيه عمره حتى استندى غاربه!!

ثم أين أصحاب أبي نواس شاعر الخمريات من أصحاب الخيام المنحولة عليه الخمريات؟ ذاك أصحابه منْ ذكرنا وهم في المجون ملوك وصناديد!! وهذا أصحابه الوزير نظام الملك صاحب المدارس النظامية التي أراد بها أن تعلم الفقه السنّي وتنافس دار الحكمة مدرسة العلم الشيعي، والإمام الغزالي حجة الإسلام، وشيخ القرآء أبو حسن الغزالي، والإمام مظفر الاسفزازي والسمرقندي مؤلف چهار مقاله!!

وذاك تلاميذه «مصابة المّجان» كما كانت تُسمّى، وكان اجتماعهم في حانات بغداد يقيمون فيها بالأيام، لا ينقطع فيها شرابهم!! وهذا تلاميذه شرف الزمان محمد الأيلاقي الإمام الفيلسوف الذي وصفه البيهقي بأنه قد اجتمعت فيه الفضائل بأسرها العلمية والعملية، وله التصانيف منها اللواحق وكتاب الحيوان، والحكيم علي بن محمد الحجازي القابيني قال فيه البيهقي كان طبيباً وقوراً وفيه آداب الأطباء وأخلاق جميلة، وكان عارفاً بظواهر المعقولات، وله رسائل في الطب والمعالجات، وصنّف كتاباً في الحكمة، وعاش تسعين سنة، ومات سنة ٥٤٦هـ، والعلامة عبد الله بن محمد الميانجي، وذكر البيهقي أنه من تلاميذه

وتلاميذ محمد بن حمويه والإمام أبي الفتح أحمد بن محمد الغزالي، ويضرب به المثل في الذكاء، وخط كلام الحكماء بكلام الصوفية، وكان فقيهاً أديباً يميل إلى التصوف، وصنّف في صنوف العلوم، وكان الناس يعتقدون فيه ويتبركون به، وظهر له القبول التام بين الخاص والعام حتى حسدوه وأطلقوا ألسنتهم فيه، وقصده أبو القاسم الوزير، وكتب عليه محضراً، وحمله إلى بغداد مقيداً، وصلّب بهمذان في اليوم السابع من جمادى الآخرة سنة ٥٢٥هـ، وقبره يزار بها!!

هؤلاء هم أصحاب وتلاميذ هذا وذاك! فهل من الممكن بعد ذلك أن نشك في أن الخيام لم يكن نواسي الطباع، وأن خمرياته الخليعة كانت منتحلة عليه، وأن من نطوها عليه أرادوا بها أن يقرنوه بأبي نواس ويطعنوا به فلسفته الدينية ويشككوا في توحيده وإيمانه؟

والذي لانشك فيه أن تزيف هذه الخمريات المستكرة على الخيام كان من قبل الباطنية والشعوبيين المتزندق الذين انتشروا في بلاد الإسلام من أبناء المجوس وموالي الفرس، وكان المجون والزندقة من سمات عصر الخيام.

ويرد الكثير من النقّاد والمؤرخين هذا التيار الماجن الذي شمل شرب الخمر واللواط ورفقة النسوان والزنا في عصر الخيام إلى تأثير أبي نواس وعصابة المجان من الفرس ومواليهم وكان شعر أبي نواس وجماعته وما ترتب عليه واتصل به من فنون الموسيقى والغناء يثير الاضطراب في الأوساط الفكرية والأدبية والفنية في عصره ومآلحه من عصور، وكثر المقلدون له، ولانستبعد أن ينسبوا بعض ماقلدوه إلى الخيام لمشابهة سطحية بين رباعياتهم ورباعيات الخيام.

فماذا بشأن الرباعيات الخمرية التي يمكن نسبتها حقيقة إلى الخيام - هل كانت رباعيات صوفية المضمون إذن طالما أنها لم تكن إباحية؟  
هذا ما سنتناوله في الفصل القادم إن شاء الله.

\*\*\*\*\*